وفرنسا في حرب الجزائر ١٩٥٦؟ وعلم الطب النفسي القامع ١٩٦٤؟ ورفضه لجائزة نوبل في العام نفسه؟ والجرائم الاميركية في الفيتنام ١٩٦٦؟ وتشبيه قسم كبير من اليسار الفرنسي للدول العربية بأنها دول تقدمية؟ أتراه أخطأ عام ١٩٦٨ (ثورة الطلاب)؟ وهل أخطأ عام ١٩٦٠ بأن يدير جريدة «قضية الشعب»، اياً كانت خلافاته في وجهة النظر مع هذه الجريدة؟ وحين دافع عام ١٩٧١ عن «باديلا» ضد كاسترو؟ وحين تدخّل عام ١٩٧٢ لصالح المعتقلين في فرنسا؟ اننا نستطيع، ويجب ان نتابع حتى ١٩٨٠، الى ان نبلغ الوفد الذي ترأسه سارتر (وكان قليل العدد جداً) الى السفارة السوفياتية بعد اغتيال ثلاثة من الأرمن...

لقد أصبح سارتر، في اعتقادي، المطلب اليومي للنظر الى الأمور مواجهة ولاقتحامها ـ اذا اتاحت الفرصة استجلاءها ـ مهما كانت الصعوبات او العواقب.

وها نحن نسمع اليوم «شباناً» يقولون ما نتوقّع منهم قوله: أن سارتر، في نظرهم، ليست له الأهمية نفسها التي كانت بالنسبة لجيل ١٩٥٠. وهكذا ترتدّ الصناعة الثقافية بسارتر الى الأثريات. لنكن جدّيين: فبالنسبة لجيل كجيلي الذي كان يتعلّم منه أن يخرق القانون، سيكون هناك دائمًا «طابع» سارتر على هذه الأفكار وهذه الأعمال. اما بالنسبة للأجيال التالية، فقد زال الطابع، ولكن ما أهمية ذلك؟! إن المحتوى يبقى، ويحيا، وينمو.

لماذا؟ لأن فلسفة سارتر، في رأيي، هي في فرنسا هذا العصر، «فلسفة الذات الفلسفة الوحيدة التي تبحث في وجه الريح والمدّ عن مكان «الذاتية» في الواقع. لقد رفض سارتر نهائياً مقولة «الذات البورجوازية»، الـ «هاملت» الاستيهامي الذي همّه ان يثبت فقط ان لا مكان للفرد في عالم اليوم. ومع ذلك، فان سارتر لا تسحره الأصوات التي فيما هي ترفض كذلك، وبحق، النزعة الانسانية التقليدية، تتخلص في الوقت نفسه من الماء القذر، ولا تتكلم بعد الا بعبارات القوانين والأشياء والبُنى. إن سارتر يواصل بحثه عن وضع الانسان، وضع البشر. وليس الخطأ خطأه اذا كان الانسان المعاصر مزدوجاً، انساناً وابنَ آوى. ويرتبط بذلك ايضاً ان سارتر، بسبب من هذه الازدواجية نفسها، وبسبب من الحرية، ومن الأمر العارض، التقى «القلق». ولكنه المنظّر الوحيد الذي قدّم عن القلق خطاباً غير بسيكولوجي، كما يقال، خطاباً غير مقلّص.

عن القلق، ولكن ليس عن اليأس. فليس عنده يأس، لأنه يمنح نفسه، ولأنه منحنا الوسائل لنحمي انفسنا من اليأس، بأن نبحث عن الحقائق فيما وراء جدار الضمير الطيّب. لقد كتب سارتر عام ١٩٥٢: «انني اكن للبورجوازية حقداً لن ينتهي الا بانتهائي». ولكن هذا الحقد للنظام البورجوازي (مهما كان لون البورجوازية، حتى ولو كان أحمر) ينتقل من جيل الى جيل، ولن ينتهي الا بانتهاء هذا النظام.

لقد وضع سارتر قدميه في الوعاء. أف! بعد ذلك، لا يمكننا أن نأكل منه.

ترجمة «الآداب»

الأستاذ والمتوحّش

كلود روا

منذ العبارة الاولى التي أطلقها مجهول عام ١٩٣٠ «الحقيقة لا تولد اولاً»، لم يكفّ الناس عن ان يسمعوا من لدن سارتر جلبة من «التلاكم» الداخلي، وأصداء صمّاء لمشادّة لا تنتهي، وهزيم عاصفة في جمجمة، ومصارعة فكرٍ قويّ مع ذات نفسه.

إن سارتر الناثر صاحب فكرة «ان عليه، فيما هو يعرض احاسيسه، ان يضيئها ويوضحها» يأخذ بخناق سارتر الشاعر الذي يرتكب، كجميع الشعراء، ذنب «إسالة عواطفه في قصيدته» والذي يخلط كل شيء بالكلمات بدلاً من إضاءة كل شيء بالمعاني.

إن الوجودي (الذي يفاخر بأنه انسانويّ) يضرب بشدّة على رأس ذلك «الانسانوي» الكبير الذي ينهمك برفع ياقته نحو «القيم الخالدة». إن الأخلاقي الذي يرى أنك «حين تسمّي سلوك فرد، فانك تكشفه له، وبالتالي تغيره، ينتقد انتقادا لاذعاً عالم النفس ذاك المتهم دائمًا بأنه يبحث عن «انسان خالد» فيجد الطبيعة الانسانية، وينسى أن «الكلام يعني العمل»، العمل من أجل التغيير. إن الميتافيزيقي المأسوي والفيلسوف الرصين ينتقدان روح الجدّية. ان المعقلن العنيد ينفذ سهامه بذلك الذي يعتقد بأن العقل لا يعطي الحق لشيء. ان «المحرّك» الذي لا يتعب ولا يكلّ، رئيس الفريق، يحاول ان يخُمد ذلك الذي يعلن: «كل مشروع هو، في نظر من يفكر، «خُلف وعبث». ان المتوحّد الذي يبهره «الحزب» يحاول ان يخُرس المتمرّد المتوحش الذي يبصق في وجه المسوخ الباردة.

لم يسيء أحدٌ لسارتر بقدر ما أساء هو نفسه، حتى آخر حديث له. إن المرء ليبتسم تجاه لهجة المحقق الصغير التي حاول «بيني ليفي» ان يضع بها سارتر على السفود: ولكن قوة سارتر الاولى هي انه لم يوجّه قط الى نفسه حديثاً مؤدباً. حين نشر «الكلمات: سيرتي الذاتية»، حكاية الولد «بوبو» الذي أصبح سارتر الرجل، تمتم ريمون كينو «انه كتاب جميل، ولكني أجد سارتر شديد القسوة مع بوبو». ذلك ان سارتر كان دائمًا قاسياً مع سارتر، حتى حين كان يعمد احياناً الى ايذاء نفسه باعطائها حق ان يخطيء، لأن الحقيقة لا تولد اولاً، بل هي تُصنَعُ وتَصير.

إن «ربّاع» الافكار، عدّاء مباراة الديالكتيك للمسافات البعيدة، مسافات «الشيوعيين والسلم» التي تقطع «الأنفاس» مسافات «نقد العقل الجدلي» او «فلوبير» (اكبر طوفان نقدي في التاريخ الأدبي)، إن سارتر الذي لا يتعب والذي لعب طوال نصف قرنٍ محشو بالايديولوجيات كما يحشى مدفع بالبارود، دورّ الخطيب العالمي،

متسائلاً عن كل شيء ومجيباً أحياناً عن بعض اسئلته، ربما أنسى الناس سارتر الأول، ذلك الذي انفجر مع «الغثيان» والذي ظل هيجان بركانه متواصلاً حتى النهاية. لقد حاول طوال حياته ان يتخذ احتياطاته مع هذا الغاضب الرائع، وان يصيح بأن افكاره أهم من أحاسيسه، وان التزاماته هي قضايا عقلية، وعواطفه حكاية خاصة، ولكننا ما نكاد نعيد فتح أعمال سارتر الكاتب، حتى ينفجر في وجوهنا الرماد ومقذوفات البركان و «الشطط» والجنون العظيم.

لم يكن سارتر يريد، بصفته رجل فعل، ان يكون كاتباً، ولا فناناً. إن تلك ميزة عصر كان المقياس الذي لا يخطيء فيه أن الذين صنعوا ادباً جيداً هم الذين احتقروا الأدب، وان الشعراء الحقيقيين قد مارسوا، بعد قصيدة مشهورة لايلوار، «نقد الشعر» وعاشوا، مع «باتاي»، «كراهية الشعر» وان الفنانين قد علّموا، بصورة عامة، «موت الفن».

لم يوجّه سارتر في «ما هو الأدب؟» سخريات سوداء بما فيه الكفاية للمبخّرين وضافري الشرائط التبجيلية، اولئك الذين يبعدون عن الرجال العظام الغائبين «افكارهم» المزعجة جدا والمربكة جدا والتي تجووزت تماماً، تلك الافكار التي فسدت في الهواء عبر القرون، لكي لا يُبقوا «خلف اسباب العقل التي تتهاوى» الا «أسباب القلب»، اي العواطف والتلهفات. ومع ذلك، فان سارتر لم ينتظر ان يصبح تمثالاً لكي يقوم هو نفسه بترتيب افكاره، واحيانا بنقلها. إنه لم يكفّ لحظة عن ان يضعها موضع التحدّي، والاتهام وان يطرحها للنقاش، وان ينبذها حين يرى ذلك ضرورياً.ولكن حتى ولو كان سارتر يكره الخلود وشمولية المومياءات وأبدية «العواطف»، فان ما يظلّ يغلي تحت رشاقة الجدليات وشبكة الاسباب التي بسطها سارتر، هو كل ما كان يخجل منه او يحتقره: ان يكون يكون «رائياً» او مجنوناً او طفلاً او شاعراً.

ان سخرية سارتر وذعره ودواره وغضبه هي كلها من صفات «الرائي». والعميان وحاسرو النظر يُسمّون «رائين» اولئك الذين يرون ما يرفضون رؤيته. وذلك النثر الذي يريد ان يكون جافاً، فيصبح دبقاً كاللقاح، كالمني، كالموت، انما هو نثر رجل يحاذر الشعر محاذرته للطاعون، وهو مع ذلك قد كتب بالنثر قصيدة متوحشة. إن بأمكانه ان يبني لـ «مسجوني التونا» بيتاً من حجارة مقصوبة، بيتاً صلباً لا ينقصه مفتاح باب، ولا «ساعة المانية ضخمة تدقّ ثلاث دقّات» عند رفع الستارة. ولكن لا حاجة بسارتر لأكثر من حركة حتى يدمر قاعته البورجوازية، ويُطلق من جديد «ذبابه» و«عقاربه»، وحشوده الليلية، وينصب على المسرح الذي يصبح مرة اخرى «غرفة» «جلسة سرية» ـ ينصب شخصية «فرانتز» والمونولوج الذي لا يُنسى لهذا الجنون الذي ينطق بالحقيقة.

ربما كان فكتور هوغو مجنوناً يحسب نفسه فكتور هوغو. ولكن سارتر هو دوماً هذا المثقف الفرنسي الذي يسعى لكي يُعتبَر الاستاذ رقم واحد لجيله، والذي يتجاوزه ابداً «وحشُه» الداخلي. وعلى شاكلة مدير المستشفى الذي يلقي محاضرة عن وجود (او عدم وجود) اللاوعي، والذي يرى انبثاق مرضاه الأكثر أهمية في قاعة المحاضرة، يشرح سارتر بشكل لطيف انه ينبغي على المرء الا يهتم بالدخلاء لأنهم ليسوا الاّ أشخاصاً «خياليين» امثال «غوتز» او «كاين»، او ربما كانوا هلوسة من الهلوسات، ولكن ما هو هام حقاً، انما هو النظرية التي كان يعرضها.

ويحاول المستمعون ان يقتنعوا بما قيل، فيتابعون تسجيل الملاحظات ويطرحون على الخطيب أسئلة حكيمة، ويعرضون عليه المصاعب التي ربما كانت مواقفه المتناقضة تثيرها، ولكن الشخصيات المقلقة والرائعة التي ترود القاعة، ايروسترات، فرانتز، غوتز... تمنع الجمهور من ان يكون متنبهّاً بالقدر الذي يفرضه العرض الفكري العظيم. ويفقد طالب غير حكيم صبره، فيقول: «اعترف، يا سيد سارتر، انّ «هم» هم انت!» عند ذلك، يطوي سارتر اوراقه، ويرتب الصفحات العشرة آلاف التي يكتبها ويقول: «ما دمتم حريصين على ذلك، فسأتحدث اليكم عن نفسي». ويبدأ: «لست قائداً، ولا أطمح الى ان اكونه، لا يتأكلني دُمَّلُ السلطة: فانا لم أتعلم الطاعة». ويجلس المغيرون المقلقون، فيستمعون الى سارتر حتى النهاية، حتى آخر «كلماته»: «اذا وضعت «الخلاص» المستحيل في مخزن قطع الغيار، فماذا يبقى؟ يبقى انسان مصنوع من كل الناس وهم جميعاً يساوونه وهو يساوي ايا كان» وحين ينتهي سارتر، يرين على القاعة صمت عميق: صمت حياة.

لما كان سارتر قد فعل كل شيء، طولاً وعرضاً، فقد كتب على الارجح من الحماقات والتفاهات بقدر ما كتب من صفحات رائعة، وقد خلف من الاوراق الجافة الميتة مثل ما خلف من اشجار وغصون مرصودة للينوعة والاخضرار وقتاً طويلا. ولكن هذا الفيض من المسودات ومن المبيضات، من الدونية ومن العظمة، انما هو ثمرة الفضيلة الاولى لرجل كانت الكتابة والقراءة ـ والحياة ـ بالنسبة اليه «تمرين كرم وسخاء».وليس من قبيل الصدفة أن كلمة «كرم»، حين كان يريد ان يشرح كيف يقضي وقته في حياته، ذلك الوقت الذي كرسه للكتابة دون ما هوادة، تتردد عشرات المرات على قلمه: «القراءة ميثاق كرم بين المؤلف والقاريء.. ان تكتب، يعني ان تكشف العالم وان تعرضه في الوقت نفسه كرسالة، كمهمة على كرم القاريء واريحيته [...] إن الحبّ السخيّ هو قَسَم على الصمود، والغضب السخي قَسَم على التغيير».

حين ننظر الى جنون مجانين سارتر، و «جنونه» هو نفسه، نلاحظ انها انما هي اولا حكمة الكرم المجنونة بعض الشيء.

ترجمة «الآداب»